الفصل الثاني

الميدان الصوتي

إنّ اللغة في حقيقتها مجموعة من الأصوات الإنسانية العديدة تصدر عن جهاز خاص متفاوتة، ومن عدد من الأحبال الصوتية، ثم تتألف هذه الأصوات فيما بينها ليتكون منها مجموعات مختلفة، كل واحدة منها تؤدي معنى من المعاني الكثيرة.

وبقدر ما تزيد حاجيات المجتمع وتثرى معانيه يزيد عدد هذه المجموعات الصوتية حتى تكون متجاوبة تماماً مع هذه المعاني وتلك الحاجيات. ومن هنا تختلف الثروة اللفظية من لغة إلى أخرى ومن لهجة إلى أخرى، بل في اللغة الواحدة تختلف هذه الثروة اللفظية من عصر إلى عصر آخر بالنسبة لحيات اللّغة نفسها.

فهناك من المجتمعات الإنسانية من لا يزال يعيش في عالم المادة وفي دنيا الأمور الحسيّة. لذلك لا يحتاج إلا إلى عدد محدود الألفاظ اللغويّة تسد حاجة دنياه وتتجاوب مع ما يدور في عالمه، وهناك من استطاع –لعوامل مختلفة– أن يظفر بدرجة من التطور والتقدّم فكرياً واجتماعياً وأدبياً، فتراه يضيف إلى عالمه المادّي ودنياه الحسيّة أموراً تتصل بعالم نفسي روحي أو معنوي فيصنع لذلك ألفاظاً جديدة من أصوات أخرى –على ضوء تجربته– تشرح مدلول هذه الأمور النفسية أو الروحيّة أو المعنوية. فاللغة أو اللهجة مرآة للمجتمع الذي يتداولها، لأنها تعكس قدرته على استعمال الجهاز الصوتي في استخراج الأصوات. ولقد أردت في هذا الفصل أن أتناول أبرز جوانب النظام الصوتي للهجة قبيلة الحمر، تلك اللّهجة التي نزح متحدثوها عرباً واستقروا في بقاع بين تخوم المفاوز ومشارف الآجام، موضحاً أبرز السمات النطقية لصفات الحروف والتراكيب الصوتية.

المبحث الأول: الأصوات الشفوية والأصوات الشفوية الأسنانية

الحروف الشفوية هي الحروف التي يستدعي النطق بها استعمال الشفتين أو على الأقل الشّفة السفلى. وهي في اللغة العربية الباء والجيم والواو.[1] الباء صوت شديد مجهور مرقق انفجاري[2] مزدوج يتم نطقه بضم الشفتين ورفع الطبق[3]، ليغلق ما بين الحلق والتجويف

---

[1] صبحي الصالح (١٣٨٨هـ): دراسات في فقه اللغة، ط٧، دار العلم للملايين، بيروت، ص٢٨٠.

[2] رمضان عبد الوهاب (١٩٨٥م): المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغويّ، القاهرة، ص٤٢.

[3] مصطفى حركات (١٤١٨هـ) الصوتيات والفونولوجيا، المكتبة العصرية، بيروت، ص٥٩.

الأنفيّ مع ذبذبة الأوتارالصوتية. أما الميم، فإنّه حرف شديد، شفوي مزدوج، خيشومي وهو مستمر لإمكانية تمديده نوعاً ما عند الوقف. الواو يعتبر ضمن الأصوات الصامتة وهو صوت مجهور.[١]

والحمر ينطقون صوت الباء على الوصف المذكور. ولكن الحمر أحياناً ينحون إلى قلب النون ميماً بتأثير الباء في بعض الكلمات، وذلك إذا سبقتْ الباء وكانت ساكنة إذ تتأثر النون الساكنة بالباء التالية لها فتقلب إلى صوت من مخرج الباء هو صوت الميم وهو صوت شفويّ كالباء. وهذا ما سماه علماء القراءات بالإقلاب، في مثل قوله تعالى: **(اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّـــدُور)** [٢] وفي قوله تعالى: **(إِذِ انبَعَثَ أشقَاهَا)**[٣] ومثل ذلك قول عامة الناس اليوم عمبر في عنبر، وقد استرقت السّمع مرةً لأحد أقحاح بداة الحمر ينشد الدوبيت، فاقتطفت منه ما يلي:

لونك ضهباً صفارو عجيب

طلعة نهدك سمبل العنكوليب[٤]

فهو يصف فتاة لونها أصفر فاقع كالعسجد. وقد برز نهداها كسنابل (قصب) العنكوليب، والشاهد في قوله هذا "سمبل" وأصل الكلمة سنبل. ومثله قول الحمر وجُلّ أهل السودان "همباتة" في هنباتة، وأصلها فيما أرى نهّابة مثل قولنا علاّمة وفهّامة على سبيل المبالغة والفعل نهب حصل فيه قلب مكاني فصار هنب كقولنا خَنْخن[٥] ونخْنخ[٦] وهلع[٧] وعله[٨] ولزج وزلج.[٩] ثم لحقت به تاء زائدة في نظري فصارت هنبت. وقد وردت كلمات في مواضع أخرى أبدل فيها الحمر وبعض ناطقي العربية بكردفان، الباء ميماً نحو "مسراع" في "بسراع" أي بسرعة وكذلك كبريت يقولون فيها كبسريت ثم تُحال إلى كمسريت وابن عمي

---

[١] المدخل إلى علم اللغة: مرجع سابق، ص٤٢.

[٢] سورة المائدة: الآية ٧.

[٣] سورة الشمس: الآية ١٢.

[٤] مقابلة: حامد علي إبراهيم: سوق أبو قلب ٢٠٠٥/١٠/١٨م.

[٥] لسان العرب: مرجع سابق، ج١٤، ص٢١٧، مادة "نخنخ".

[٦] المرجع نفسه، ج٥، ص١٧١، مادة "خفن".

[٧] المرجع نفسه، ج١٥، ص٧٩، مادة "هلع".

[٨] المرجع نفسه، ج١٠، ص٢٦٦، مادة "عله".

[٩] المرجع نفسه، ج١٣، ص١٩٥.

لزم في لزب، بمعنى لصيق العلاقة قال الله تعالى: (إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ)[١] أي لاصق لزج[٢]. وقد وقع هذا الإبدال لتقارب مخارج الباء والميم. وهذا يفسر قول الحمر وكثير من ناطقي العربية بالسودان: بكان في مكان، وسناب في سنام وبنبر في منبر. ومما جاء على غراره، قول العرب بكة[٣] في مكة واطبأن[٤] في اطمأن.

إضافة إلى ذلك فهم يبدلون الميم نوناً أيضاً في نحو قولهم نعيز في معيز. وهذا الضرب من التعاقب بين صوتي الميم والنون شائع في كلام العرب، من ذلك قولهم: (امتقع- وابتقع- وانتقع)[٥] وقاتن في قاتم[٦]. وتم الإبدال في النماذج السابقة لأن الميم والنون صوتان أنفيان مجهوران غير أن الميم شفوي والنون لثوي[٧].

ومن النادر أن يقلب الحمر الباء فاءً. ومثال ذلك فرتك بمعنى برتك. تقول العرب فرتك عمله إذا أفسده. قال صحاب اللسان: يكون ذلك في النسيج وغيره. وإبدال الباء فاء ورد في لغة بني حنظلة وهم بطن من تميم[٨]. وقد جاء في معجم لسان العرب قول الأزهري "سمعت أعرابياً من بني فزارة يقول لخادم له: ألا وارفع لي عن صعيد الأرض مصطبةً أبيت عليها بالليل. فرفع له من السهلة شبة دكان مربع قدر ذراع من الأرض يتقي بها من الهوام بالليل. قال: وسمعت آخر من بني حنظلة سماها المصطفّة بالفاء".[٩] وقد ورد نطق الفاء تارةً بالتشديد وتارةً أخرى من غير تشديد وتقول العرب انفلج الصبح وانبلج إذا ظهر.[١٠]

وإذا أردنا أن نفسر إبدال الباء فاء عند الحمر وبني حنظلة وغيرهم فإننا نلاحظ أن الباء والفاء متجاوران مخرجاً. فالباء مما بين الشفتين، أما الفاء فمن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا. فالتبادل بينهم تجيزه القوانين الصوتيّة.[١١]

---

[١] سورة الصافات، الآية ١١.

[٢] لسان العرب، مرجع سابق، ج١٣، ص١٩٣، مادة "لزب".

[٣] المرجع نفسه، ج١٠، ص٤٠٢، مادة "بكك"

[٤] الفراهيدي، الخليل بن أحمد (١٩٦٧م): العين، ج٧، ت. د. عبد الله درويش، بغداد، مادة "طبن"، ص٤٣٨، ولسان العرب، مرجع سابق، ج١٣، مادة "طمن" ص٢٦٨.

[٥] لسان العرب، مرجع سابق، ج٨، ص٣٤١، مادة "تقع".

[٦] المرجع نفسه، ج١٢، ص٤٦١، مادة "قتم". المرجع نفسه، ج١٣، ص٣٣٠، مادة "قتن".

[٧] كمال بشر (١٩٨٧م): علم اللغة العام، مكتبة الشباب، القاهرة، ص٧٢.

[٨] لسان العرب: مرجع سابق، ج٢، ص٤٩، مادة "برت".

[٩] المرجع نفسه، ص١١، مادة "صطب".

[١٠] المرجع نفسه، ج٢، ص٣٤٨، "مادة فلج".

[١١] سيبويه (١٩٦٦م): الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج٤، القاهرة، مصر، ص٤٣٣.

المبحث الثاني: أصوات الصّفير

حروف الصّفير هي السين والصاد والزاي. وتتفق في أنها من مخرج واحد هو طرف اللسان وفويق الثنايا العليا، وأنها جميعها رخوة[١]. ويحدث عند النطق صفير عالٍ لا يشاركها في نسبة علوه غيرها من الأصوات.[٢] وذلك بسبب ضيق مخرج الهواء إذ أن اللسان يسدّ كل المنافذ الجانبية ولا يترك إلا طريقاً منخفضاً يمر به الهواء المقذوف، ونحصل على حرف صفيريّ وهو السّين والصّاد مهموساً مفخماً، والزاي مجهوراً.[٣]

وقد بقي صوت السين في لهجة الحمر في جلّ المفردات على ما هو عليه في اللغة العربية الفصحى إلا أنّه يفخم في بعض الكلمات لينقلب صاداً. ومثيل ذلك قولهم: صُرّة في سُرّة كعامة أهل السودان، وخُرص في خُرس وصُرْفة في سُرفة ويعنون بذلك تلك الدويبة التي تتغذى بالغلة عند بدء إنباتها في التربة. ويلاحظ فيما سبق ذكره أن هذه إحدى خصائص الراء إذ يميل إلى تفخيم بعض الأصوات المجاورة له.[٤] ومما ورد في هذا القبيل –أي التفخيم والقلب– لدى الحمر قولهم بصاط في بساط وصبق في سبق ولصق في لسق. ويوافقون بني تميم في ذلك النطق.[٥] ويقولون الصّقط في السَّقْط وهو ما تناثر من قطع الجليد على الأرض وهم يعنون به البرد القارس.

وقد أشار ابن جنّي إلى هذا حين ذكر أنه إذا جاء بعد السّين غين أو خاء أو قاف أو طاء، جاز قلبها صاداً.[٦] وبما أن القراءات القرآنية –في نظري– مرآة للهجات العرب فقد وردت هذه الصيغ في القراءات الشاذّة. ويعدّها بعض علماء اللغة حجّة.[٧] ويروى عن النبي أنه قرأ (باصقات) في قوله تعالى: **(وَالنَّخْلَ باسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ)**[٨] [٩]. وقرأ ابن عباس ويحيى بن عُمارة (أصبغ) في قوله تعالى: **(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي**

---

[١] سيبويه (١٩٦٦م): الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج٤، القاهرة، ص٤٣٣-٤٣٥.

[٢] إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ط٥، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، ص٧٤.

[٣] مصطفى حركات: الصوتيات والفونولوجيا، مرجع سابق، ص٦١.

[٤] د. رمضان عبد التواب: التطور اللغوي: مظاهر، وعلله وقوانينه، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص٣٨.

[٥] د. ضاحي عبد الباقي (١٩٨٥): لغة تميم، المطابع الأميرية، القاهرة، ص١٣٧.

[٦] ابن جنّي (١٩٥٤): سر صناعة الإعراب، ت. مصطفى السقا وآخرين، ج١، القاهرة، ص٢٢٠.

[٧] لغة تميم: مرجع سابق، ص١٥٧.

[٨] سورة ق، الآية ١٠.

[٩] ابن جنّي (١٩٦٦م): المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، ت. علي النجدي ناصف وآخرين، ج٢، القاهرة، ص٢٨٢.

الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)[١] [٢] وهي لغة بني العنبر.[٣] وقرأ جمهور القراء كلمة السّراط بالصّاد ما عدا رويساً عن يعقوب فإنه يبدله سيناً، ولقنبل فيه وجهان وذلك لأن كلمة الصراط شاعت بالصّاد[٤] وهي لغة قريش الجيدة الفصيحة أكثر من شيوعها بالسين رغم كونها الأصل.[٥]

وهذا النوع من الاستعمال شائع في الكويت والإمارات العربية وشرق المملكة العربية السعودية (وهي البيئة التميمية). فيقولون: صخلة في سخلة ومن أمثالهم (الطّول طول نخلة والعقل عقل صخلة)[٦]. وسمعت في إبان إقامتي في أقصى جنوب الحجاز، أهل منطقة جيزان يقولون أرض "صبخة" أي مملوحة في "سبخة" وسكان إقليم نجران يقولون: ثوب "وصخ" في "وسخ".

وعلنا نجد تفسيراً لنطق السين صاداً عند الحمر وغيرهم من بداة السودان وبني تميم. فلو رجعنا لوصف العلماء لهذين الصوتين، لوجدنا أن الصّاد حرفٌ مطبقاً يناسب البيئة البدوية لما فيه استعلاء بيّن. وتطرق ابن جنّي إلى ذلك إذ يقول: (وذلك أن حروف الاستعلاء تجتذب السين عن سفالتها إلي تعاليهن والصّاد مستعلية)[٧] ويتضح لنا مما سبق أن هذا نوع من التماثل التخلفي وهو أيضاً جزئي منه المتصل والمنفصل.

أما صوت الزاي فإنه ينطق عند الحمر عربيّاً فصيحاً. وأود أن أشير إلى أن هنالك كلمات نادرة يؤثر فيها الحمر الزاي على الصاد وعلى السين. وقد سمعت منهم من يقول زحليّة في سحليّة وزعف في سعف (كعامة أهل السودان) يريدون بذلك سعف أشجارالنخيل والدوم والدليب. ومنهم من يقول (زقي zagay الغنم) يريدون سقى، وأزباب في أسباب كقول البعض: أوريني أزباب زعلك. بإشباع أرني وهي لغة أهل الحجاز[٨]. وحكى الزمخشري فقال:

---

[١] سورة لقمان، الآية ٢٠.

[٢] د. عبد اللطيف الخطيب: معجم القراءات، ج٧، ص١٩٧. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، مرجع سابق، ج٢، ص١٦٨.

[٣] ضاحي عبد الباقي: لغة تميم، مرجع سابق، ص١٥٧.

[٤] محمد بن اجزري (١٩٧٢): تخبير التسير في قراءة الأئمة العشرة، ت. محمد صادق القمحاوي وعبد الفتاح القاضي، القاهرة، ص٤١-٤٢.

[٥] مختار بن سيدي الغوث (١٩٩٣): لهجة قريش، النادي الأدبي بالرياض، السعودية، ص١٣٤.

[٦] الشيخ جلال حنفي (١٩٤٦): معجم الألفاظ الكويتية، بغداد، ص٢٤١.

[٧] لغة تميم: مرجع سابق، ص١٥٥.

[٨] لهجة قريش: مرجع سابق، ص١٤٩.

(سمعتهم يقولون: أَوْرِينِيه بمعنى أَرِينيه أي أبرزه لي).[١]

وهكذا تمّ التخلص في الأمثلة التي أوردتها سابقاً من صفة الهمس في صوت السين باستبداله بالزاي المجهور. وحدث هذا في رأيي لتدخل قانون السهولة والتيسير. وهذا النوع من الإبدال عينه يرد في لغات بعض العرب. فأهل اليمن مثلاً يقولون: أزد في أسد[٢] وحللت مرةً مع رفاق منهم في الحجاز، فسمعتهم يقولون: "زلطة" في سلطة الخضر. وأهل الموصل وبعض أهل السودان يقولون: "نزبة" في نسبة.[٣] وأهل نجد ينطقون بعض الكلمات على ذلك النسق. وذهب كل من ابن جنّي والزمخشريّ وابن الحاجب إلى أن كلباً تقلب السين زاياً مع القاف خاصة، فيقولون في سقر (زقر). وقد عُزي قلب السين زاياً إلى قبائل بني القيّم وبني عذرة ذات الجذور اليمنية.[٤] والحمر ينطقون كذلك في بعض الكلمات الصاد زاياً، نحو قولهم: الوليد "زرخ" في صرخ، أيضاً بزق في بصق وهذه لغة ربيعة.[٥] ولقد ورد هذا النوع من الإبدال في اللّهجات العربيّة القديمة إذ قُرئ "يزدر" في قوله تعالى: **(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَاخَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)**[٦] والشاهد هنا في يزدر إذ نلاحظ التماثل التخلفي الجزئي المتصل. وقيل هذه لغة طي إذ تغلب كل صاد ساكنة قبل الدال زاياً.[٧] وقرأ قالون الزراط في قوله تعالى: **(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)**[٨] والتماثل هنا تخلفي جزئي منفصل. وذكر صاحب المقدمتان في علوم القرآن أن الذي يشم بالصاد زاياً يحافظ على بقاء الإطباق في الصاد.[٩] ولعلها تنطق مثل الظاء العامية لدينا بالسودان. ولا غرابة في قلب الصاد زاياً عند الحمر وغيرهم إذا أدركنا الصلة بين صوتي الصاد والزاي مما يجعل التناوب بينهما

---

[١] الزمخشري، أبو القاسم جار محمود بن عمر (١٩٦٠): أساس البلاغة، مادة وري، القاهرة، مصر.

[٢] إبراهيم السامرائي: في اللهجات العربية القديمة، بغداد، ص٩٧.

[٣] مجلة جامعة الآداب، جامعة بغداد، العدد (١٣)، ص٢٥.

[٤] صالحة راشد غنيم: اللّهجات في كتاب سيبويه، ط١، دار المدني، جدة، السعودية، ص٢٤٨.

[٥] لغة تميم: مرجع سابق، ص١٣٧.

[٦] سورة القصص، الآية ٢٣.

[٧] أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللّغويّ (١٩٦٠م): الإبدال، ت. عزالدين التنوخي، ج٢، دمشق، ص١٢٦-١٢٨.

[٨] سورة الفاتحة، الآية ٦.

[٩] أثر جفري (مستشرق) (١٩٥٤م): مقدمتان في علوم القرآن، القاهرة، ص١٤٧.

مستساغاً، بل وفي اللّهجات العاميّة الحديثة لأهل القاهرة "أزدير" في "قصدير" وأهل تطوان بالمغرب يقولون "زعلوك" في صعلوك.[1]

خلاصة القول في هذا المبحث أننا إذا أمعنا النظر في الأنماط السابقة من الكلمات التي تعاقب فيها صوت الصّاد والسّين، فإننا نلاحظ أن الأصل فيها هو المروي بصوت السين، ويمثّل البنية العميقة وهي السائدة في الاستعمال اللغوي الفصيح وهو الأكثر شيوعاً. وإحلال الصاد محل السين، قد حدث بسبب اختلاف البيئات ويمثل البنية السطحية للكلمة لأنه في الغالب يرد على المستوى اللّهجيّ، أي في نطاق ضيق إذ يحول صوت السين المرقق إلى صوت الصّاد المفخّم ويبدو لنا أصل هذا التغيير تركيبي في كثير من النماذج بسبب تأثر السين بما جاورها.

[1] د. عبد المنعم سيد عبد العال (١٩٦٨): لهجة شمال المغرب، القاهرة، مصر، ص٨٠.

المبحث الثالث: الأصوات المائعة

الأصوات المائعة هي التي يحدث عند نطقها أن يمر الهواء بمجراه دون احتكاك أو انحباس من أي نوع، إمّا لأن مجرآه في الفم يتجنب المرور بنقطة السدّ أو التّضييق، كما في صوت اللام. أو لأنّ التّضييق غير ذي استقرار كما في صوت الراء، أو لأن الهواء لا يمر بالفم، وإنما يمر بالأنف كما في صوتي (الميم والنون) ويطلق على هذا النوع من الأصوات (الأصوات المتوسطة)، لأنها ليست بالشديدة ولا بالرخوة. وهذه الأصوات الأربعة تسمّى عند علماء الغرب بالأصوات الملائعة والسائلة.[١]

وهذه الأصوات أحياناً تتعاقب في النطق عند العرب. فيقال: (الليل واللين) على البدل بين صوتي اللام والنون.[٢] وأيضاً (رمقته ولمقته) أي إذا اتبعته ببصرك تتعهده وتنظر إليه وترقبه. فالتعاقب واضح بين صوتي الراء واللام.[٣] وكذلك يقال: (الأحراش والأحناش) بمعنى هوام الأرض.[٤] و(الوكْر والوكن) للمكان الذي يلوذ فيه الطائر.[٥] وقد وردت الصيغة الأخيرة في شعر أمرئ القيس حينما وصف رحلة صيد قام بها، إذ قال:

وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجردٍ قيد الأوابد هيكلِ[٦]

ومن الملاحظ أن هذه الأنماط المذكورة تتراوح ما بين الاستعمال الواسع والاستعمال المحدود. ولقد عرضتها هنا لأبين ما ورد على نسقها في لهجة الحمر، فهم يقولون: "جيت مُمْبحين" أي منذ حين. قال الشاعر علي حمد ناير في حوار أجريته معه يصف رجلاً جواداً:

قدحك مُمْبحين في الفضاية مُبكِّر
نارك ديمة الغريب فيها محكِّر
عشاك لضيف الهجعة فيه ما بتفكِّر[٧]

فهذا الممدوح كاليَمِّ في عطائه وسخائه فقد وضع منذ حين وفي وقت مبكر مائدته في عرصة الدور التي دأب أهل الحيّ على الاجتماع فيها لتناول الطعام بُعيد أفول الشمس. وقد اعتاد

---

[١] المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص٢٣.

[٢] لسان العرب: ج١١، مرجع سابق، ص٦٠٨. مادة "ليل".

[٣] الصحاح، ج١٤، مرجع سابق، ص١٥٥١.

[٤] لسان العرب، ج٤، مرجع سابق، ص١٩١. مادة "جشر"

[٥] المرجع نفسه، ج٥، ،ص٢٩٣. مادة "وكر، وكن".

[٦] الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى: جواهر الأدب، ج٢، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، ص٣٦.

[٧] مقابلة: حمد ناير، عِدّ النهود الطوال، ٢٠٠٦/٥/١٢م.

الغرباء على ولوج منزله مهتدين بناره التي تظل متّقدةً آناء الليل. وإذا قصده طارق عند الهجوع فإنّ طعامه معدٌّ لا يحتاج إلى تفكير أو تدبير.

والشاهد (مُمْبحين) والنطق الشائع في كردفان "منبحين". وأحتج أن ظاهرة تناوب إبدال النون ميماً أو العكس شائع في كلام العرب فلا غرابة إذا سمعنا أهل الحجاز يسمون الجان من الحيات "الأيْم" وبنو تميم يقولون "الأيْن" ومن العرب من يقول "الغيم" و"الغين" أي السحاب. و"المدى والندى" بمعنى الغاية.[١] والجدير بالذكر أن "منبحين" في لهجة أهل كردفان يعنون بها الظرف المكاني المركب "منذ حين".

وإذا أردنا أن نفسر إبدال الحمر وغيرهم للنون ميماً فلا بد أن نعقد مقارنة للصلة الصوتيّة بين الصوتين فالنون والميم وإن كانا غير متقاربين مخرجاً فهما متحدان في الصفة. فالنون مخرجه مما بين طرف اللسان وما فويق الثنايا.[٢] ومخرج الميم مما بين الشفتين. ويشترك الصوتان في أن مجرى الهواء معهما دون سائر الحروف من الأنف.[٣] ومن ثمّ سهُل التعاقب بينهما. وكلمة لعل ينطقها الحمر وأهل الريف من كردفان "نعلّ" وكثيراً ما نسمع ترادها في التحية لديهم في نحو: "إتّ طيب، طابن إيامك، نعل عيالك بخير" وقد وردت في "لعل" اثنتا عشرة لغة منها: لعلّ، لعنّ، رعلّ، رعنّ[٤].

الحمريّ يقول: "الكلب ناص" إذا ولى مبتعداً وجلاً- وقد صدر منه صوت- مبدياً قلقه ورعبه أو ربما يحدث هذا الصوت وهو يدور حول صاحبه الذي وفد من سفر ناءٍ ليعبر عمّا يهزّه من شوق وأحياناً يطلقونها على إحداث هذا الصوت فقط وكلمة "مناص" المشتقة لا تخرج عن المعاني التي أتناولها في هذا المبحث وقد ورد في قوله تعالى:(**كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قبلِهِم مِّن قَــرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِــينَ مَنَــاصٍ**)[٥] [٦] أي لات مهرب. وبدو كردفان ورعاة الإبل خاصة كالحمر وغيرهم يستعمل بعضهم هذه الكلمة بالمعنى المذكور. فقد حدثني أحد الثقاة بأنّه رأى جمهرة من

---

[١] ضاحي تميم: لغة تميم، مرجع سابق، ص١١٣-١١٤.

[٢] ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج١، مرجع سابق، ص٥٢.

[٣] الكتاب لسيبويه، ج٤، مرجع سابق، ص٤٣٣.

[٤] الحسن بن قاسم المرادي (١٩٨٣م): الجني الداني في حروف المعاني، ت. فخر الدين قباوة وآخرين، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص٥٨٢.

[٥] سورة ص، الآية ٣.

[٦] لسان العرب، ج١٤، مرجع سابق، ص٣٨٤. مادة "نوص".

الصبية يلهون في العراء. وألفى أحدهم يرسم دائرة حول نملة وهو يحرك سبابته ليردّها لتلج داخل الدائرة كلما حاولت أن تندّ عنها قائلاً: "ما ليكِ مناص ما ليكِ مناص"[١].

وجذر الكلمة السابقة نطقته العرب باللام أيضاً. تقول العرب لاص عن الأمر وناص عنه إذا جاد عنه. وألاص الشئ وأناصه إذا حركه عن موضعه.[٢] ومما ورد على هذا المنوال قولهم: صنّ اللحم وصلّى إذا أنتن.[٣] والحمر يقولون صنّت أباطه، والمعنى هذا شائع عند أهل السودان قاطبةً، فالصُّنان لديهم ذفر الإبط.

وما ذكرته يُعدّ ضرباً من التغير التاريخي لبعض الكلمات في لهجة الحمر. ومن أمثلته أيضاً– أي ما أبدل فيه اللام نوناً– عند الحمر وكثير من بداة السودان (عزرائين وجبرين وإسماعين وأحياناً سُماعين بحذف الهمز). وأحياناً نسمع من لحقه ضيم يدعو على غريمه قائلاً: "عزارئين يشيل روحك". وكان بنو تميم يقولون: "جبرئيل"[٤] والهمز هو الأصل[٥]، فهذه الكلمة علم أعجمي من الكلمة العبرية "جبريئيل" ومركب من جزئين بمعنى رجل الله.[٦] والصيغة التميمية لهذا الاسم ورد على لسان جرير عندما كان يهجو الأخطل:

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمدٍ وبجبرئيل وكذبوا ميكالا[٧]

ولغة قريش إبدال همزته ياءاً خالصة مع كسر جيمه فيقولون: "جبريل". وقد جاء ذلك في شعر ورقة بن نوفل:

وجبريل يأتيه وميكالُ معْهما من الله وحي يشرح الصدر مُنزل[٨]

أما بنو أسد فينطقونه "جبرين".[٩]

---

[١] مقابلة: الأستاذ دوليب محمود دوليب: قرية عيال بخيت، ٢٠٠٧/١٢/١٠م.

[٢] يعقوب بن سكيت (١٦١٨م): الإبدال، ت. حسين محمد شرف الدين، القاهرة، ص٦٨.

[٣] آمنة صالح الزعبي: التغير التاريخي للأصوات، دار الكتاب الثقافي، إربد، الأردن، ص١٦٨. لسان العرب، ج١٣، مرجع سابق، ص٢٥٠، مادة "صنن".

[٤] لغة تميم، مرجع سابق، ص١٣١.

[٥] النحّاس: إعراب القرآن، ج١، القاهرة، ص٢٥١. لهجة قريش، مرجع سابق، ص٦٥.

[٦] لغة تميم، مرجع سابق، ص١٣١.

[٧] جرير بن عطية الخطفي (١٩٦٤م): ديوان جرير، دار صادر، بيروت، لبنان، ص٢٦١.

[٨] الطبري، محمد بن جرير: تفسير الطبري، ج٢، ت. محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ص٣٨٨-٣٨٩.

[٩] أبو حيان أثير الدين محمد بن يوسف (١٣٢٨هـ): البحر المحيط، ج١، القاهرة، ص٣١٨.

وقد ورد لفظ جبريل في القرآن في قوله تعالى: **(قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ)**[1] وقرأه على لغة قريش ابن كثير وابن محيسن ويوافقهما نافع وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب واليزيدي وابن عامر، إلا أن ابن كثير وابن المحيسن يفتحان الجيم.[2] ومن قرأ على النهج التميميّ "جبرئيل" حمزة والكسائيّ والأعمش وخلف والعليميّ عن بكر.[3]

ونستخلص من العرض السابق أن الحمر وكثيراً من أهل الريف السوداني ينطقون بعض الكلمات كجبريل وما شابهها على نهج بني أسد. والصّيغ "جبريل وعزرائيل وإسماعيل" تمثل بنى عميقة أي أصلية تشيع في الاستعمال اللّغويّ كما نلاحظ. أما الصّيغ المقترنة بالنون منها، فإنها بنى سطحية كما نرى، لأنها ذات استعمال لهجيّ محدود. والجدير بالذكر أن التّعليل الصوتيّ لتبادل النون واللاّم له ما يبرره، فهما متحدان صفةً، وكلاهما مجهور متوسط لا هو بالشديد ولا هو بالرخو، ومتقاربان في المخرج، فاللام من بين حافة اللسان وبين ما يليها من الحنك الأعلى. ومخرج النون ما بين طرف اللسان وما فويق الثنايا.[4] لكن مجرى الهواء يختلف مع كل منهما، فهو مع النون يتخذ مجراها مع الأنف ومع اللام يتخذ مجراه من الفم، ولقلب اللام نوناً ينتقل مخرج اللام إلى مخرج النون ويتخذ الهواء مجراه من الأنف.

المبحث الرابع: صوت الجيم

ينطق الحمر في غالب كلامهم صوت الجيم بلسان أهل الحجاز، وبذلك يطابق صوت الجيم في اللغة العربية الفصحى. أي صوت غاري مجهور منفتح وهو مزدوج "انفجاري فاشل" يجمع بين الشدة والرخاوة.[5] ووصف العلماء صوت الجيم الشجريّ هذا؛ بالصوت المركّب أو المزجي.[6] والحمر ينطقونه بجلاء عند اتصال لام التعريف به خلافاً لكثير من العامة من

---

[1] سورة البقرة، الآية ٩٧

[2] الدمياطي، أحمد بن محمد (١٣٥٩هـ): إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، ج١، القاهرة، ص٤٠٨.

[3] التيسير، مرجع سابق، ص٧٥.

[4] سر صناعة الإعراب، ج١، مرجع سابق، ص٥٢ و٦٩.

[5] المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص٣٤-٣٥.

[6] المرجع نفسه، ص٤٨.

ناطقي العربية بالسودان، إذ يشيع اللحن بينهم في هذا الوضع. إذ يقولون على سبيل المثال: "أجَّمل" أي يجعلونها شمسية.

لكنّ كثيراً ما تحدث على مرّ الزمن بعض التغيرات الصوتيّة في اللسان. وهذه التغيرات الصوتيّة تنقسم إلى قسمين كبيرين، أولهما التغييرات التاريخية والثاني التركيبيّة. والأخيرة هذه أي التركيبيّة هي التي تصيب الأصوات من جهة الصلات التي تربط هذه الأصوات بعضها ببعض في كلمة واحدة.[1]

أما التغييرات التاريخية فهي تلك التغييرات التي تحث من التحول في النظام الصوتيّ للغة بحيث يصير الصوت اللغويّ في جميع سياقاته صوتاً آخر. ومن التغييرات الصوتيّة التاريخيّة في لهجة الحمر ما طرأ على صوت الجيم في بعض الكلمات، إذ ينحون منحى أهل صعيد مصر في نطق الجيم دالاً، فيقولون فيما لم يسحق جيداً من الحنطة أو الذرة "دشيش ودشيشة" وهي تطلق أيضاً على كل حبٍّ مجروش أو كل طعام قوامه غلّة مرضوضة. وكذا تنطق الجيم–كما ذكرت آنفاً– في بعض بقاع الصعيد المصري، فيقولون: "دمل وداموسة" في "جمل وجاموسة" وغير ذلك. وقد سمعتُ النّطق على هذا النّسق ممن عاشرتهم إبان هجرتي من سكان صعيد مصر.

وقلب الجيم دالاً لا يقتصر على لهجة الحمر لوحدها بل نجده عند كثير من قبائل السودان، فيقولون: "الديش" يريدون "الجيش". وتعليل ذلك –في نظري– مطابق لما لاحظه علماء اللغة المحدثون من أنّ أصوات أقصى الحنك، الجيم والقاف والكاف، تميل بمخرجها إلى نظائرها من الأصوات الأمامية. ومن أمثال الحمر السائرة: "العندو دشع ما بلقى فزع" والمعنى عينه طرقه زهير بن أبي سلمى حيث قال:

ومَنْ يك ذا فضلٍ فيبخل بفضله

على قومه يُستغنَ عنه ويُذمم

وهم يعنون بذلك أيضاً أنّ ذا الجشع والطمع لا يلقى مَنْ يؤازره إذا أثخنته كلوم النوائب.[2] وفي اللهجة العاميّة المغربيّة ما يطابق ذلك النطق، إذ يقولون: "الدّزائر" بدلاً عن الجزائر.[3]

---

[1] رمضان عبد التواب: التطور اللغويّ، مرجع سابق، ص٣٤-٣٥.

[2] الزوزني: شرح المعلقات السّبع للزوزني، القاهرة، ص١١٩. وزهير بن أبي سلمى: ديوان زهير، ط١، دار الكتب العلمية، القاهرة، مصر، ١٩٤٤م.

[3] التطور اللغويّ، مرجع سابق، ص٢٦.

وإذا تتبعنا هذا التغيير في قلب الجيم دالاً نجده يعزى إلى انحلال الجيم العربية الفصيحة إلى عنصريها الدال والشين.[١] ومثال لذلك ماراواه ابن هشام اللّخمي- المتوفيّ سنة ٥٧٧هـ- بأنّ بعض الناس في عصره يقولون: "تدشيت" في "تجشأت".[٢]

والعنصر الثاني هو الشين الأصلية في العربيّة، تلك الشين التي ضاع منها الجهر فصارت مهموسة والتي ينطقها بنو تميم، إذ قال شاعرهم زهير بن ذؤيب العدويّ:

فيا لتميم صابروا قد أشئتم إليه وكونوا كالمحرّبة البُسْل

وقد وردتْ في قريض الأخطل:

ستقذفُ وائل حولي جميعاً وأطعنُ إن أُشِئتُ إلى الطعانِ

ومن هذا القبيل ما أورده أبو عمر الشيباني بأنّه مع من يقول: "الإشاءة" يعني الاضطرار وأهل الحجاز يقولون: "الإجاءة". يقال ما أجاءك إلى كذا وكذا؟ أي ما اضطرك إليه؟.[٣] قال الله عز وجل: **(فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا)**.[٤]

مما سبق نلاحظ تطور الجيم الصوتيّ المذكور مماثل لقولنا في العاميّة أحياناً: "أغسل وشك" فقاربت بذلك الجيم الشامية المعطشة.

وخلاصة القول أنّ الدال أيسر في الأداء من الجيم في النّماذج التي ذكرتها سابقاً. لذا آثرها الحميريّ ومنْ نحا نحوه على المستوى اللهجيّ. والأدل على ذلك ما نلاحظه في الكلمات التي تشتمل على الجيم. إذ ينطقها الطفل الغرير -الذي لم يستقم لسانه- دالاً. فيقول: "يوم الدُّمعة" بدلاً من الجمعة.

---

[١] التطور اللغويّ، مرجع سابق، ص٢٦.

[٢] المرجع نفسه، ص٢٦.

[٣] أبو عمر الشيباني: الجيم، ج١، دار العلم للملايين، بيروت، ص٧٠. الأخطل (١٩٩٩م): ديوان الأخطل، ط١، دار صادر، بيروت، ص٢٨١.

[٤] سورة مريم، الآية ٢٣.

المبحث الخامس: صوت القاف

لقد عدّ قدماء اللّغويين القاف من الأصوات المجهورة وهو حرف لهويّ شديد مستعلٍ.[١] وينطقه مجيدو القراءات لهوياً شديداً مجهوراً.[٢] غير أن هنالك تغييرات تاريخية كثيرة طرأت على نطق القاف في لهجة الحمر. ومن تلك التّغييرات في لهجة الحمر وعامة أهل السُّودان مانسمعه من تأدية أقصى حنكية منفتحة مجهورة كما في بادئة الكلمة الإنجليزية (Go). ومثال لذلك قول شاعرهم:

الكوراك ضرب وحرّت القايلة والفزع مرق إلاّ ابنفيساً خايبة

أي ارتفع "الكوراك" وهو صوت استغاثة متعارف عليه في الحي عند حلول الكوارث كالنهب والحرائق وغيرها، ليهبّ النّاس لبذل العون.

وعندما سمع القوم هذا النداء هرعوا لنجدة الملهوف في حمّارة الغيظ، ولم يتراخَ إلاّ الهيّابة النكس. والشاهد في البيت السابق كلمتا "القايلة" و"مرق" وهذا النطق شائعٌ عند بني تميم من سالف العصور، وتعرف بالقاف التميمية ويسميها السّيرافي القاف المعقودة. وقد وصفها ابن دريد قائلاً: فأمّا بنو تميم فإنهم يلحقون القاف بالكاف فتغلّظ جداً فيقولون: "الكوم" يريدون "القوم". فتكون القاف بين القاف والكاف، وهذه لغة معروفة في بني تميم. وقد أشبهت الكاف الفارسية نطقاً. قال أبو الأسود الدؤلي:

ولا أگول لگدر الگوم گد نضجت

ولا أگول لباب الدار مگفول

ونُسب البيت السابق لحاتم الطّائي.[٣]

والقاف التميمية هذه كانت شائعة من القرن السابع والثامن من الهجرة، أيام أبي حيّان وابن خلدون. يقول أبو حيّان: "وهي الآن غالبة في لسان أهل البوادي من العرب حتى لا يكاد عربي ينطق إلا بالقاف المعقودة لا بالقاف الخالصة الموصوفة في كتب النحويين، والمنقولة على وصفها الخالص على ألسنة أهل الأداء من أهل القرآن".

---

[١] الفونولوجيا والصوتيات، مرجع سابق، ص١٢١.

[٢] المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص٥٤.

[٣] لغة تميم، مرجع سابق، ص١٠١.

ومازالت هذه الصورة هي السائدة في معظم أنحاء الجزيرة العربية وكثير من الدول العربية. والحمر كغيرهم من ناطقي العربية في السودان إذ ينطقون القاف غيناً في كلمات مخصوصة، مثل قاسم ويوم القيامة فيقولون: غاسم ويوم الغيامة ويعدّ هذا نوعاً من تطرف القاف.

ومن أمثلته في كلام العرب أقلف وأغلف، أي لم يختن. ويقولون في رذال الناس الذين لا خير فيهم: "القمز والغمز".[١]

وقلب القاف غيناً له ما يبرره صوتياً. فالصوتان متجاوران مخرجاً. فالغين يرى سيبويه أنها من أدنى الحلق جهة الفم. والقاف من المخرج الذي يليه وهو أقصى الحلق وما فوقه من الحنك الأعلى وأنهما يتفقان في الجهر إلا أن الغين رخوة والقاف شديدة.[٢] ونلاحظ أن تطور الصوت يكون بتغيير مخرجه وذلك بانتقال الصوت إلى الوراء أو إلى الأمام باحثاً الصوتُ في انتقاله عن أقرب الأصوات شبهاً به. وهذا ما حدث –كما أسلفت– عن قلب القاف غيناً. وبناءً على ذلك أستطيع أن أعوّل في تفسير ما حدث على رأي فريق من علماء اللغة يرى بأن القبائل التي تنطق على هذا المنوال إنما تعود بمخرج القاف إلى الوراء قليلاً.[٣]

والحمر ينطقون القاف كافاً في بعض المفردات فيقولون في قتل: "كتل"، ويجاريهم في ذلك كثير من أهل السودان، وفي قتار– أي رائحة الشواء– "كتار" ويمكن أن نفسر هذا التناوب لتقارب مخارج أصوات حروف أقصى الحنك وهذا النمط النطقي جرى على ألسنة العرب من قديم الزمان، إذ روي عن العرب قولهم: التزحلق والتزحلك. وهو جلوس الصبيّ على رأس أرض منحدرة ثم يندفع على قفاه.[٤] ويعضّد ما ذكرته سابقاً أن قريشاً تقول كشطتُ عنه الجلد.[٥] وتقول تميم وأسد وقيس قشطته، وفي قوله تعالى: **(وإذا السماء كشطت)**[٦]. قرأ ابن مسعود: "قشطت" بل ومن العرب من يقول: "الكمح" لغةً في "القمح".[٧]

---

[١] الإبدال لأبي الطيب، ج٢، ص٣٢٨-٣٢٩.

[٢] لغة تميم، مرجع سابق، ص١٠٦.

[٣] الإبدال، لأبي الطيب، مرجع سابق، ج٢، ص٣٢٨-٣٢٩. المدخل إلي علم اللغة، مرجع سابق، ص٨٠.

[٤] لسان العرب، مرجع سابق، ج١٠، ص٤٣٥ مادة زحلك. العين، مرجع سابق، ج٣، ص٣٣٣ مادة "زحلق".

[٥] الإبدال، يعقوب بن سكيت، مرجع سابق، ص١١٤.

[٦] سورة التكوير، الآية ١١. د. عبد اللطيف الخطيب (د ت): معجم القراءات، ط١، دار سعد الدين، دمشق، سوريا، ص٣٢٦.

[٧] لغة تميم، مرجع سابق، ص١١١.

يذكرني هذا الضرب من الاستعمال بقصة طريفة رواها الأصمعي عن رجل وُجد خارجاً من الصحراء كأنه جذع محترق، قال: فقلت له: أتقرأ شيئاً من كتاب الله؟ قال: لا. قلت: فأعلمك؟ قال: ما شئت، قلت: إقرأ: **(قل يا أيها الكافرون)**. قال: (كل يا أيها الكافرون). قال: قل كما أقل. قال: "ما أجد لساني ينطلق بذلك". [١] وخلاصة القول، فإنّ ما سلف ذكره فهو الصورة اللهجيّة لنطق القاف عند الحمر. ويلاحظ أن "قاف القراء" الفصيحة لم تكن من بينها، تلك القاف التي وصفت بأنّها صوت شديد مجهور مخرجها من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى، فهي والكاف من حيز واحد إلا أنّها أدْخل في الفم.[٢]

المبحث السادس: أنماط من التماثل

التماثل التبادلي:

هو أن يتأثر صوت سابق بصوتٍ تالٍ "وهو تماثل تخلفي" ثم يتأثر الصوت التالي بالصوت السابق "وهذا تماثل إتباعي". وقد يكون التماثل بالعكس أي إتباعي ثم تخلفي ويطلق على هاتين العمليتين تماثل تبادلي.[٣] ولا حظتُ ورود النّوع الأول –أي المكون من تماثل تخلفي ثم إتباعي– في لغة قبيلة الحمر، وكذلك قبائل الأبالة التي تجاورهم في البيئة مثل المعاليا والبزعة ودار حامد وبني تميم كانوا ينطقون بعض الألفاظ على تلك الشاكلة فيقولون في أعهد: "أحّد".[٤] وقد ورد هذا اللفظ في قوله تعالى: **(ألم أعهد إليكم يابني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدوٌ مبين)**[٥] فنطقته تميم "أحّد".[٦] وتم ذلك بأن قلبت العين حاءً وهما من مخرج واحد وهو الحلق بسبب مجاورة الهاء التي تتفق معها في الهمس والرخاوة فصارت "أحْهد" وهذا تماثل تخلفي جزئي متصل، فاجتمع صوتان متفقان صفةً ومتجاوران مخرجاً هما الحاء والهاء، ثم انتقل مخرج الثاني إلى مخرج الأول فاجتمع صوتان من جنس "أحْحَد" أولهما ساكن والثاني متحرك فأدغما وهذا تماثل كلي إتباعي متصل.[٧]

---

[١] ابن عبد ربه الأندلسي (١٩٤٥م): العقد الفريد، ج٣، ط١، ت. محمد سعيد العريان، دار الاستقامة، القاهرة، ص٤٧٦.

[٢] الكتاب، لسيبوية، مرجع سابق، ج٤، ص٤٣٣-٤٣٤.

[٣] لغة تميم، مرجع سابق، ص١٥٩.

[٤] المرجع نفسه، ص١٥٩.

[٥] سورة يس، الآية ٦٠.

[٦] الحسين بن أحمد بن خالويه (١٩٣٤): مختصر في شواذ القرآن، القاهرة، ص١٢٠٥.

[٧] الكتاب، لسيبويه، مرجع سابق، ج٤، ص٤٣٣.

ومن العبارات الشائعة عند الحمر قولهم: "فلان ناقته باحّا بسعر غالي" وذلك عندما يؤمون السوق ويتجاذبون أطراف الحديث عمّا جرى فيه من أحداث تجارية تختصّ بالبيع والشراء، وبالنظر للعبارة السابقة نستنبط أن الحمر ينطقون على نسق بني تميم الذي سبق تفصيله. وقد أشار سيبويه إلى ذلك في كتابه إذ قال: (قول بني تميم "مَحَّمْ"، ويريدون معهم)،[1] قال ابن منظور: (غلبت الحاء على العين في لغة سعد فيقولون: "كنت مَحَّمْ في مَعَهم) وبنو سعد بطن من تميم.[2] وإذا أمعنّا النظر في لفظ "باحّا" الحمريّة و"محَّمْ" التميميّة فإننا نلاحظ أن كل لفظ مركب من كلمتين. فاللفظ الأول يتألف من "باع" والضمير "ها" واللفظ الثاني يتكون من "مع" والضمير "هم" فقلبت العين حاءً في اللفظين بتأثير الهاء فصارا "باحَها" و"مَحَهُم". ثم قلبت الهاء حاءً بتأثير الحاء. فأصبحا "باححا" و"مَحَحُم" وتم إدغام الحاء في كل اللفظين، فكانت الصورة النهائية للكلمتين "باحّا" و"محُّم". والمرحلة الأولى تماثل جزئي تخلفي منفصل، والثانية تماثل كلي إتباعي منفصل. وهكذا أدغمت الحاء في الحاء. وممّا يجدر ذكره بأن هذه اللغة قد سمعتها على لسان بعض العشائر اليمنية في مناطق قبائل همدان عند تخوم اليمن مع البلاد السعودية حيث أقمتُ ردحاً من الزمن في تلك البقاع.

التماثل الكلي الإتباعي المتصل:

عند إسناد الفعل الذي لامه طاء إلي تاء الفاعل يقول الحمر والعديد من المتكلمين العربية السودانية على سبيل المثال "خبطَّ السراق يا محمد؟" و"ربطَّ الحصان يا محمود؟" على سبيل استفهام التنغيم. وينطقها أيضاً كثير من الحمر والأبالة بكردفان على سياق آخر يوافق نهج قبائل الأردن وفلسطين فيقولون: "خَبَطِطْ ورَبَطِطْ" وقد يظهر بعضهم تاء الفاعل بنطق يقارب الطاء. وأصل تركيب الفعل مسنداً إليه تاء الفاعل للمخاطب "خبطْتَ" بإسكان لام الفعل. ثم تأثرت التاء بالطاء فقلبت إلى صوت مماثل فأصبحت "خبطْطَ" فاجتمع صوتان ساكنان من جنس واحد سكن أولهما فأدغم في الثاني فأصبح "خبطَّ". وهذا نوع من التماثل الكلي الإتباعي المتصل ومثله قولهم "خَبَطِطْ" إلاّ أنها لم تدغم وأنشد وفق هذه اللغة علقمة بن عَبْدة في قوله:

---

[1] الكتاب، لسيبويه، مرجع سابق، ج٤، ص٤٥٠.

[2] لسان العرب، مرجع سابق، ج٢، ص٣٤٤. مادة "ستت"

وفي كُلِّ حيٍّ قد خبطَّ بنعمةٍ فحُقَّ لشأسٍ من نداك ذَنُوبُ[١]

وعقب سيبويه على هذا الضرب من التماثل المذكور بقوله: "وأعْربُ اللغتين وأجودهما ألا تقلبها طاء، لأنّ هذه التاء علامة إضمار، إنما تجئُ لمعنى ليست تلزم هذه التاء الفعل".[٢]

خلاصة القول أنّ المسوِّغ لإبدال التاء طاءً أنهما من مخرج واحد وهو أصول الثنايا العليا، فالعرب تقول: هذا رجل طبق وتبق أي فطن.[٣] ومن أمثلة التماثل الكلّي الإتباعي المتصل عند الحمر استعمالهم للفعلين: ادّهن واصبّر في نحو قولهم: "المريض ادّهن بزيت الخروع"، و"وفلان اصبّر على المصيبة". الكلمة الأولى أصلها: "ادتهن" كافتقد، ولكن تأثّر فاء الكلمة بتاء الافتعال فقلبت دالاً وذلك لتقارب مخرجيهما، فكلا الحرفين اسنانيّ مجهور منفتح. أما كلمة "اصبّر" هي في الأصل اصتبر، بيد أن الصاد أثّرت في تاء الفاعل فانقلبت حرفاً من جنسها وذلك لأنّ الحرفين يشتركان في المخرج إذ أنّ كليهما أسنانيّ لثويّ.[٤] ومثيل ذلك اضّجع وأذّكر وهما حسب الأصل اضتجع إذتكر ومما تلزم الإشارة له أنّ العرب تقول في اصتبر "اصطبر" كما في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[٥] وذلك لأنّ من معايير العرب الفونولوجية أنّ التاء تصير طاء إذا اتصل بها حرف من حروف الإطباق وهذا "تماثل جزئي تخلفي متصل".[٦]

التماثل الكلّي التخلفي المتصل:

ينطق الحمر لفظي "حج وشجرة" بخفض فاء الكلمة ويجاريهم في ذلك بعض متحدثيى العربية في السودان وبنظرة استقراء فاحصة للقراءات القرآنية يمكن أن نتحقق من نطق ألسنة العرب لهذين اللفظين. وفي قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[٧] قرأ بالكسر لكلمة (حِجّ) كل من حفص وحمزة والكسائي [٨] وأبو جعفر

---

[١] أبو محمد عبد الله بن سلم بن قتيبة (١٩٠٢م): الشعر والشعراء ليون، ص١١.

[٢] الكتاب، لسيبويه، مرجع سابق، ج٤، ص٤٧٢.

[٣] الإبدال، لأبي الطيب، مرجع سابق، ج١، ص١٢٦.

[٤] المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص٤٦-٤٧.

[٥] سورة طه، الآية ١٣٢.

[٦] الصوتيات والفونولوجيا، مرجع سابق، ص١١٣.

[٧] سورة آل عمران، الآية ٩٧.

[٨] التيسير، مرجع سابق، ص٩٠.

وخلف [٩] والأعمش والحسن. وقرأ بقية الأربعة عشر بالفتح. وقد وردت هذه الكلمة في
القرآت العشر مرات والآيات الأخرى سوى الموضع المذكور سابقاً قرئت كلها بالفتح ولم يقرأ بالكسر سوى الحسن.[١] وقد علّق على ذلك اللّغوي يونس حسين قال:"الحجازُ الحَجّ وتميم الحِجّ".[٢] ويعضّد رأيه النّحاس فهو يعقّب على قوله تعالى: **(يسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)**[٣] بأنّ الفتح لأهل الحجاز والكسر لأهل نجد.[٤] وذكر صاحب الإتحاف بأنّ الكسر نسب لنجد والفتح للحجاز وأهل العالية وأسد.[٥] أمّا لفظ شجرة فقد تكرر في القرآن الكريم ومنه قوله تعالى: **(إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ)**.[٦]

نخلص ممّا سبق أن الحمر ينطقون هذين اللفظين "الحج والشجرة" وِفقَ أهل نجد كبني تميم وأسد. وهنالك تفسير بيِّن لهذه الظاهرة عند التميميين، فهم يقلبون كل جيم ياء في كثير من الكلمات. وقد سمعتُ هذه اللغة في مواطنهم الحالية في شرق السعودية والكويت. لذا كسرت فاء الكلمة في لفظي "حج وشجرة" بسبب مجاورة الياء إذ تأثّرت بها وهذا تماثل كليّ تخلفيّ متصل. واستنبط من هذا بأن القبائل الجهنية التي ينتسب إليها الحمر ربما كانت تقطن في بقاع تتاخم ديار القبائل التميمية.

المبحث السابع: النّبر

النّبر في اللغة هو الطعن بشدة ثم نزع الرمح بشدة، وكلّه بسرعة. ومن ثمَّ أطلق على النَّطق بصوت مرتفع تظهر معه الحروف مسموعة.[٧] والنّبر في الكلام خلاف الجمجمة أي عدم إبانة

---

[٩] تحبير التيسير، مرجع سابق، ص٩٨.

[١] محمد فؤاد عبد الباقي (١٩٨٦م): معجم ألفاظ القرآن، ج١، دار الفكر، القاهرة، ص٢٤٨.

[٢] عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (١٩٨٦م): المزهر، المكتبة العصرية، بيروت، ص٢٩٨ب.

[٣] سورة البقرة، الآية ١٨٩.

[٤] إعراب القرآن للنّحاس، ج١، ص٢أ.

[٥] إتحاف، مرجع سابق، ص١٧٨.

[٦] سورة الدخان، الآيات ٤٣، ٤٤، ٤٥.

[٧] لسان العرب، مرجع سابق، ج٥، ص١٨٩، مادة "نبر".

الكلام[٨]، ويقال قديماً إذا مر بك اسم الأمير وأنت تقرأ فاقرأ بنبرٍ حتى يسمعه النّاس وتقول العرب: نبرت الشئ أنبره نبراً ، أى رفعته وتلاحظ أنّ المِنبر سمى كذلك لارتفاعه.

ونبرة المغنّى: رفع صوته عن خفض. وتقول العرب : نبر الغلام إذا ترعرع[٩] ويقول صاحب اللسان: نبر الحرف همزه. وقال رجل للنبى – صلى الله عليه وسلم : يا نبئ الله، فقال لا تنبر باسمى أى لا تهمزه. ورجل نبّار قيل فصيح بليغ.[١]

وقال اللحيانى: رجل صيّاح. ويقول ابن الأنبارى النّبر عند العرب ارتفاع الصّوت يقال نَبر الرجل نبرةً إذا تكلّم بكلمة فيها علو وأنشد:

إنّى لأسمع نبرةً من قَولِها

فأكادُ أن يغشى علىّ سرورا[٢]

عندما يعبر الإنسان عَمّا يكنّه فى أحنائه بلغة أو لهجة ، فإنه يميل إلى الضغط على مقطعى خاص من كلمة ليجعله بارزاً وواضحاً فى السّمع مما عداه من المقاطع . وهذا الضغط هو الذى يسميه المحدثون من اللّغويين "بالنَّبر" وهو ارتكاز على الصوت وفى اللُّغة الإنجليزيّة يُعبر عنه بلفظ stress (Accent) ويعرِّفه الدكتور تمام بأنه: "وضوح نسبىّ لصوت المقطع، إذا قُورن ببقية الأصوات والمقاطع فى الكلام"[٣] ويفصِّل الدكتور بشر فى ذلك إذ يقول: "معنى هذا أنّ المقاطع تتفاوت فيما بينها فى النطق قوةً وضعفاً، فالصوت "أو المقطع المنبور، ينطق ببذل طاقة أكثر نسبياً ويتطلب من أعضاء النطق مجهوداً أشد[٤]. وعلى الرغم من أنّ قُدامى اللغويون العرب لم يدرسوا النّبر بمعنى الضغط على بعض مقاطع الكلام، فإنّ بعضهم قد لاحظ أثره فى تطويل بعض حركات الكلمة، ويسميه ابن جنى "مطل الحروف". فيقول مثلاً : "وحكى الفراء عنهم": أكلت لحما شاة، أراد بذلك لحمَ شاة، فمطل الفتحة، فأنشأ عنها ألفاً واستدلّ بما أنشده على بن هرمة فى رثاء ابنه[٥]:

فأنتَ من الغَوائلِ حين تُرمَى

---

[٨] القاموس المحيط: مرجع سابق، ج٤، ص٩٢، مادة "جمم".

[٩] الهادي إلى لغة العرب، مرجع سابق، ج٤، ص٢٤٦. مادة "نبر" ولسان العرب، مرجع سابق، ج٥، ص١٨٩، مادة "نبر".

[١] لسان العرب: مرجع سابق، ج١٤، ص١٧٥.

[٢] لسان العرب: مرجع سابق، ج١٤، ص١٧٥.

[٣] حسان تمام (١٩٥٥): مناهج البحث في اللغة، القاهرة، ص١٦٠.

[٤] علم اللغة العام: مرجع سابق، ص٢١٠.

[٥] ابن جني (٢٠٠١م): الخصائص، ج٣، ت. عبد العزيز هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص١٢٣.

ومن ذمِّ الرجالِ بِمُنْتَزاحِ

أراد منتزح أى نازح .

وإذا أمعنّا النظر فى لهجتنا العامية السّودانيّة فإننا نلاحظ ما يشابه هذا النُّطق، فقد يتباهى الرجل أحياناً ببكوره وفرط نشاطه وتوفير المؤن لأهله فيمطل ويمد قائلاً: "اشتريت اللحما والخضار ..... إلخ". بل والمطل الذى ذكره أبو الفتح ابن جنى يبدو واضحاً فى نطق بعض القبائل السودانيّة. ففى الغرب الأقصى من البلاد سمعت مَن يقول: جيتا فى جيتَ بالتّسهيل وأصلها جئتَ. والجدير بالذِّكر أنّ سكّان شهارة والأهنوم باليمن ينطقونها على تلك الشاكلة[1]. وكذلك قبائل البقّارة عامة تقول "متا" بالمطل فى (متى).

وتغيير موضع النَّبر فى الكلام أو بعبارة أخرى "انتقال النّبر" يؤثر فى صيغ الكلمات، وسقوط بعض أصوات الكلمة، أو طول الحركات وما إلى ذلك. ومن هنا نشأ التباين فى أداء الصيغ الكلامية للغة أعنى الأصوات المنطوقة فى اللغة الواحدة. فالنُّطق المصري لكلمة "مدرسة" مثلاً يكون بالضغط على المقطع الثانى وغيرهم يضغطون على المقطع الأول. ومن هنا يظهر لنا مدى الاختلاف فى اللهجات .

أما فى اللجهة الحمر فإننا نلاحظ النَّبر واضحاً فى كثير من الكلمات التى يلحقها ياء النَّسب، مثل قولهم: الحمري، نسبة إلى قبيلة الحمر. وإذا دققنا فيها صوتياً نجدها تُنطق على هذا النحو: ألح مَري. إذ أنَّ المقطع الأول المنبور، أدى إلى سقوط حركة المقطع الثانى فى الكلام، مع ملاحظة أن المقطع الأخير تكون فيه الراء مرققة ودون تركيز على ياء النسب. وظاهرة سقوط الحركات إذا سبقها مقطع منبور، شائعة فى اللغة العربية. فيقال مثلاً "وَهوَ" فى "هُوَ" و(مَعه) بدلاً من (مَعَه) . ويمكن ملاحظة ذلك فى سقوط حركة لام الأمر الداخلة على الفعل المضارع، عند اتصالها بالفاء أو الواو. بل لم ترد على الصورة الأصلية في القراءات القرآنية، يقول ابن خالوية: "فلو قرأ قارئٌ "فَلِيَنظر الإنسان ممّ خلق" بكسر اللام لكان سائغاً فى العربية غير أنّه لا يُقرأ به، إذ لم يتقدّم له إمام، والقراءة سُنَّة يأخذها آخر عن أول، ولا تُحمل على قياس العربية"[2].

---

[1] أحمد حسين شرف الدين (١٩٧٠): لهجات اليمن قديماً وحديثاً، مطبعة الجيلاوي، القاهرة، ص٥٧.

[2] الحسين بن أحمد بن خالويه (١٩٤١م): إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ت. عبد العزيز الميمني، القاهرة، ص٤٢.

ونطق الحمر عينه– والذى وصفته سابقاً– ألفتيه لدى القبائل المتبدِّية فى نجد والحجاز كالدواسر والعنوز والبقوم وزهران وشهران ويام وغيرهم من قطّان تلك البقاع. فيقولون فى الكلمات المنسوبة ذات المقاطع القصيرة– على سبيل المثال: العنزي (ألع نزِي) نسبة إلى قبيلة عنزة فى نجد. والبقمى (الب قمي) نسبة إلى قبيلة البقوم. فى ناحية تربة بالبلاد السُّعودية. والسّهلي (أسْ هلى) نسبة إلى بنى سهل بإقليم جازان على الحدود اليمنيّة.

إضافة إلى ذلك هنالك سمات نطقية عديدة سمعتها من بداة الجزيرة العربية الذين ذكرتهم آنفاً، تماثل تماماً ما حوته لهجة الحمر والأبالة عامةً "أعنى رعاة الإبل" بغرب السّودان. من ذلك نطقهم لبعض الكلمات مثل النّعجة إذ يقولون: (أنْ عجا) دون تركيز على الحرف الأول الأصلي من الكلمة بل وإن كان مشدّداً فتخفف الشّدَة بحيث تبدو فى نطقهم كأنَّها سكون. وهذا المعيار ينطبق على الحرف الأخير إذ ينطق دون تركيز. وممّا ورد على ألسنة الحمر وبدو جزيرة العرب على النَّسق الذى فصّلته سابقاً قولهم فى البقرة: البقرة (البْ بقرا) مع مراعاة نطق القاف كافاً فارسية لدى الجميع بيد أن الحمر يرققون الراء، وأيضاً عبارة (مافى عوجة) (ما/فِعْ/ وجا) يريدون بذلك أنهم فى أمن وسلام ولم يطرأ مايكدِّر صفو حياتهم. وكذلك قولهم: الحُمره (الحْ مرة) بالترقيق عند الحَمر. وسمعتُ بعض أهل الديار العربية السّعودية وأهل اليمن – الذين عاشرتهم زهاء عقدين من الزمان. يعنون بها شجرة العرديب الوريفة. أمَّا الحمر فيطلقونها على دوحة التبلدى، واسم الجمع عند الفريقين (حُمَر) وأهل جزيرة العرب يفخِّمون الراء وبدو قبيلة الحَمَر يرققونها.

وعند اتصال الياء– ضمير الجر للمتكلِّم بالاسم، فإنَّه يُنطق عند الحَمَر والقبائل النجديّة والحجازيّة على صورة واحدة، إذ يقال مثلاً: جملى سريع (إج / مَلى). فكأنّ الحرف الأول ساكن لديهم مع تفادى الضغط على الضمير فى آخر الكلمة وهذا ينطبق على نطقهم لبعض الظروف مثل : فوقى وقدامى . وممَّا جاء على هذا السِّياق .

شدو خريدة حمرية بمقطع من أهازيج رقصة الجراري:

القمرية بتقوقى

فى الفرع البفوقى

الجرارى الخاجوقى

نسّانى نشيل توبى[1]

فهذه الفتاة تصف يمامة تهدل على فنن بالقرب منها وقد أثارت أشجانها وبعُيد ذلك ببرهة سرى إلى سمعها نغمات حماسيّة لأغانى الجرارى (وهذا ماتعنيه بالخاجوقى) فى ناحية ما من الحىّ فطار صوابها واندفعت فى لهفة لتشارك أترابها. وعندما دلفت إلى باب الدار أدركت أنها نسيت ثوبها فكرّت آيبةً لتأخذه . والشاهد نجده فى كلمتى "فوقى" و "توبى" وإذا قسنا على كلمة "توبى" كمثال نجد نطق الضمير عند الحَمَر والأبالة بالسّودان وبدو جزيرة العرب يطابق لفظ (be) الإنجليزية دون ارتكاز غير أنّ كثيراً من القبائل السّودانية ذات اللسان العربى يطابق نطقها لهذا الضمير كلمة (be) الإنجليزية.

ومن أمثلة تقصير الحركات بتأثير انتقال النَّبر فى لهجة الحمر وكثير من متحدثى العربية بالسّودان قولهم فى نحو: (مَجِيت مالك؟)، و(مَلقيت التاجر؟)، و(مَعِندك خبر بالحاصل؟) يريدون ماجئت وما لقيت وما عندك. فانتقل النّبر من "ما" الاستفهامية إلى ما بعدها من الكلمات وهذه لغة قوم من كنانة[1].

---

[1] مقابلة: عثمان محمد نعمان من قرية الدودية – شرق بلدة الخوي ٢٠٠٧/٤/١٢م

[1] شواهد التوضيح ، لمشكلات الجامع الصحيح ، لابن مالك، ص٢١٥،

المبحث الثامن: الإمالة

الإمالة لغة مشتقة من الميل إلى الشيئ والإقبال عليه. ومال الشئ يميل ميلاً ومما لاً ومَمِيلاً وتميالاً وأنشد ابن الأعرابي:[1]

لمّا رأيت أننى راعي مال حلقتُ رأسى وتركت التّمايل

وجاء فى الحديث عن أبى هريرة _ رضى الله عنه – عن النبى _ صلى الله عليه وسلم _ قال: "صنفان من النّاس من أهل النّار لم أرَهما بعدُ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون الناس بها، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلنَّ الجنَّة ولا يجدن ريحها ...." [2]

يعنى يملْنَ بالخُيلاء ويصبنَ قلوب الرجال، وقيل مائلات متبرجات متبخترات فى المشى مميلات لأكتافهنَّ، وأعطافهنّ فتميل رؤوس النَّاس نحوهن.

أما الإمالة إصطلاحاً، فهى أن تميل الألف نحو الياء والفتحة نحو الكسرة مثل: عابد.[3]

وإنما تمال الألف لياء أو كسرة تكون بعدها وتكون منقلبة عن ياء وتكون مشتبهة بما انقلبت من ياء فما أُميل للياء قولهم: شيبان عيلان، ومما أُميل لكسرة بكسرة: عالم وخاتم ومساجد ومفاتيح. وماكان منقلباً عن ياء نحو قولك : طاب خبرك. ومن أجل الياء أيضاً إمالتهم الكافرين وما أشبهه[4].

وبعد هذا الاستيفاء المقتضب لمفهوم الإمالة انتقل لاستقصاء مظاهر الإمالة فى لهجة الحَمَر. تُعدُّ قبيلة الحَمَر مُقلة فى الإمالة. وفى واقع الأمر أنَّ سائر الأبّالة بغرب السّودان لا ينحون إلى الإمالة ما خلا الكبابيش. وتعليل ذلك– فى اعتقادى– بأنّهم (أى الكبابيش) قد تأثَّروا بقبائل الشايقية والمناصير والبديرية– تلك القبائل المميلة– والتى تقطن فى شمال البلاد حيث تتاخم ديارهم، أرض الكبابيش صوب الجنوب ومن نماذج الإمالة لديهم ما أنشدته غادة فى وداع مَنْ أولعت به داعية له بالعود الحميد وملتمسة منه ألا يبدى الجفاء أو ينكث بعهده معها[5]:

---

[1] لسان العرب: ج١٤، مرجع سابق، ص١٥٩، مادة "ميل".

[2] ابن ماجه (١٤٠٠هـ): سنن ابن ماجه، ط٣، دار المعرفة،

[3] ابن هشام الأنصاري: شرح جمل الزّجاجي، المكتبة العصرية، بيروت، ص٤٣٥.

[4] المرجع نفسه، ص١٣٥.

[5] حسن نجيلة: ذكرياتي في البادية، دار القلم، بيروت، ص٤٥.

سَرْجهَ على مقافى*

ودَّعته فى العافى*

يا تومى ما تجافى*

وعدى المعاك صافى*

وشاهد الإمالة فى هذه الأرجوزة فى " العافى" بدلاً عن العافية*.

وكما أسلفت فإنّ الإمالة عند الحمر تنحصر فى ألفاظ قليلة ومثال ذلك "أبو رَخي" علمٌ لرجل. وأصل هذه الكنية "ذو الرخاء" وكذلك كلمة ماء يقولون فيها بالتذكير "مي"، وتطابق تماماً الكلمة الإنجليزية May فى النطق. بيد أنّهم عند تعريفها ينطقونها. بإمالة كبرى فيقولون "ألمي*" وتطابق فى النَّطق لاحقة لفظة "mee الإنجليزية خلافاً لجيرانهم وأبناء عمومتهم- قبائل دار حامد- الذين انفردوا بنطقها .حسب الأصل "ألما".[١]

وممّا ورد ممالاً فى لغة الحمر ما حوته قافية الأبيات التالية[٢]:

زولى خَطَرْ صيف وهَلَّ شِتي*

نسمع حِس قعودهَ رغي*

يا شوق قليباً غاب معاه وجي*

همى مَطَرْ ليلى ونهارى غِني*

والشاهد فيما ذُكر الكلمات: شتي، رغي، جي، غني إذ أميلت إمالة صغرى مطابقة للمقطع النطقى للكلمة الإنجليزية Gay وأصل هذه الكلمات: شتاء، رَغَا، جاء، غِناء وهكذا عبّرت تلك الفتاة بأنَّ مَنْ تهواه قد نزح عن مقامهم صيفاً وبعد غيبة أطلَّ فى فصل الشتاء كالهلال المرتقب ، وطفقت خفقات قلبها تترى سراعاً عندما سمعت رغاء بعيره وهو يترجّل ليحيىّ النّاس. وأبانت بأن الهموم قد أطبقت عليها كالرّهام ولا سلوى لها إلا الغناء ليل نهار. وقرأ على هذا النسق المُمال أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف، قوله تعالى: **(فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)**[٣] والشاهد لإمالة الفعل "أفترى*"[٤].

---

[١] مرجع سابق ذكرياتى فى البادية حسن نجيلة، ص٤٥.

[٢] مقابلة: مخاوي ود علي- تزة أبي زد ٢٠٠٧/٤/١١م.

[٣] سورة الكهف: الآية (١٥).

[٤] معجم القراءات، مرجع سابق، ج٥، ص١٦٠.

وخلاصة القول نستنبط بأنَّ الحَمَر لغتهم الفتح إلا ما ندر وذلك موافق لنهج قريش التى لا تحبِّذ الإمالة فى ألسنتها، إذ أنَّ أصحاب الإمالة كُثر بنجد[١]، وأشهرهم تميم وقيس وأسد[٢]، ومَنْ استوطن فى ديارهم من القبائل ذات الجذور الحجازية كخزاعة وسعد بن بكر[٣].

[١] عبد الفتاح شلبي: فى الدراسات القرآنية واللغوية، ط٢، دار الشروق، جدة، ص١١٠.

[٢] لغة تميم: مرجع سابق، ص٢٧٣.

[٣] لهجة قريش: مرجع سابق، ص٩٤.

المبحث التاسع: الإتباع

نقول تبع الشئ إذا سار فى أثره وتلاه وتبع المصلىِّ الإمامَ إذا حذا حذوه واقتدى به[١]. قال الأخفش : تَبِعتُهُ وأتّبعتُهُ بمعنى واحد مثل رَدَفنُهُ وأردفتُهُ[٢] ومنه قوله تعالى: **(إلا من خطِف الخطفةَ فأتبعه شهابٌ ثاقبٌ)**[٣] وقد ورد وضع الإتباع موضع التّتبع مجازاً كما فى قول القطامِيّ:

وخير الأمر ما استقبلتَ منه وليس بأن تَتَبَعه اتِّباعاً[٤]

والتّبيع ولد البقرة فى حوله الأول لأنه يتبع أُمَّه. وأطلق على ملوك اليمن قديماً التَّبابعة ومفردها تبع ودار التبابعة بمكة ولد فيها النبى- صلى الله عليه وسلم والتبيع أيضاً الظل لأنه يتبع صاحبه. وكذلك يعسوب النحل[٥]. ويقول صاحب البستان . اتبعت الرجل بمعنى قفوته[٦]. والاتباع اللغوى فحواه الإتيان فى الكلام بلفظتين متواليتين على وزن تؤكد إحداهما الأخرى[٧]. وقال عنه ابن فارس: للعرب إتباع. وهو أن تتبع الكلمةُ الكلمةَ على وزنها ورويّها إشباعاً وتأكيداً ومن ضروبه أن تكون الكلمة الثانية ذات معنى. وهذا يطابق ما أشار إليه أبوعلى القالى بقوله "ضرب يكون فيه الثانى بمعنى الأول "فيؤتى به توكيداً له لأن اللفظ مخالف للأول نحو: قسيم وسيم وكلاهما بمعنى جميل، وكثير بثير وكلاهما بمعنى واحد. ومثل ذلك شهلة كهلة وضئيل بئيل وجديد قشيب. ومن صور الإتباع أن الكلمة الثانية غير واضحة المعنى ولا بيّنة الانشقاق إلا أنها كالإتباع لما قبلها كقولهم عفريت نفريت واختُلِف فيما أقترن بالواو نحو حيّاك الله وبيّاك بمعنى أضحكك ويرى الكسائى بأن الإتباع لا يكون بالواو على ما ذكر آنفاً[٨]. وممّا يرد من إتباع على ألسنة الحمر وكثير من أهل كردفان قولهم زرعت بلادى حدادى مدادى. والبلاد يطلقونها على الأرض الزّراعية. والبلاد فى اللغة مفردها بلد وبلدة. ويسمى المكان الواسع من الأرض بلداً[٩] وفى التنزيل العزيز: **(البلد**

---

[١] د. إبراهيم أنيس وآخرون (١٩٧٢م): المعجم الوسيط، ج١، الناشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ص٨١.

[٢] الصحاح للجوهري: مرجع سابق، ج٣، ص١٩٠.

[٣] سورة الصافات: الآية (١٠).

[٤] الصحاح للجوهري: ج٣، مرجع سابق، ص١٩٠.

[٥] القاموس المحيط للفيروز أبادي، مرجع سابق، ج٣، ص٨.

[٦] عبد الله البستانيّ: البستان، دار صادر، بيروت، ص١٠٢، مادة "تبع".

[٧] المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ص٢٢.

[٨] المزهر: مرجع سابق، ج١، ص٤١٤.

[٩] المعجم الوسيط: مرجع سابق، ج١، ص٦٨.

الطيب يخرج نباته بإذن الله)[1] إذن أن معنى بلاد لدى الحمر مطابقاً تماماً لما ورد فى الآية. بل ويضفي عليها إتباع "حدادى مدادى" معنى أدق تعبيراً وهو استصلاح رقعة أرض فسيحة الأرجاء مديدة الحواشى وعلى سبيل المجاز كأنها لا تحد بحدود على مدى البصر وكم سمعت الحمر وأهل كردفان يقولون عندما ينهلّ الغيث مدراراً: "السيل جاب الهاو– لاو– أو– الهاو– واللاو" ولعل ذلك يذكرنا بقريض أمرئ القيس الذى يصف ودقاً مدراراً ووادٍ تلاطمت سيوله:

على قَطَنٍ بالشيم أيْمَنَ صَوْبَه وأيْسَره على السَّتارِ فَيذْبل

فأضْحى يَسحُّ الماءَ حولَ كُتَيْفَةَ يكُبُّ على الأذقانِ دوحَ الكَنَهْبَلِ[2]

والحمر يقصدون– على وجه الدقة– بالعبارة السابقة ما حمله السيل من غثاء، وأصل الكلام – فيما أرى "الهاوى واللاوى" فحذف الياء تخفيفاً فى الكلمتين والهاوى فى اللغة هو الجراد[3] ويعنون به– فى اعتقادى ما طفا على السيل من هوام الأرض. واللاّوى مشتقة من اللّوى وهو ما التوى من الرمل بفعل الريح أو انسياب الماء[4]. وتدفقه، ومن ثم يتضمن معنى الكلمة كل ما ثناه تيار الماء بعنفوانه وجرفه السيل بطغيانه من مستدق الرمل وفتات الحطام. وقديماً طلب امرؤ القيس بن حجر من خليليه التوقف برهة عند منحنى الرمل "سقط اللوى" ليسترجع ما انصرم من أيام الهوى

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللّوى بين الدخول فحومل[4]

والحمرىّ إذا أربكه أمر ما وأسقط فى يده – يقول كغيره من أهل السّودان "خلانى فى حيص بيص" أى فى حيرة محكمة. وهذا التركيب وارد فى كلام العرب إذ يقولون هم فى حَيْص بَيْص. وأيضاً فى حِيص بِيص[6].

ومن عبارات الإتباع التى سمعتها من الحمر "قنابر حنابر" وقد يقال قنابر وحنابر . فقد لمحت مرة بدوياً من الحمر مع إبنه يعبران طريقاً مزدحماً فى قلب المدينة. وفجأة طاح الابن أرضاً بعد أن تعثر من ارتطام بمقدمة سيارة مسرعة. ثم انتصب واقفاً وقد تعفر بالتراب.

---

[1] سورة الأعراف، الآية (٥٨).

[2] ديوان امرئ القيس، مرجع سابق، ص٢٤.

[3] القاموس المحيط، مرجع سابق، ج٤، ص٤٠٤. مادة "هوى".

[4] المرجع نفسه، ص٣٨٧.

[4] ديوان أمرئ القيس، مرجع سابق، ص٢٠.

[6] الهادي، حسن الكرمي: مرجع سابق، ج١، ص٥٦٦، مادة "جبص". لسان العرب، مرجع سابق، ج٧، ص١٩، مادة "حيص".

والتف حوله رهط من المارة يؤلبونه على الاقتصاص من السائق المتهور. وعندها ابتدرهم والده فى شهامة قائلاً "يا جماعة ما تسوو الموضوع قنابر حنابر– الحمد لله على سلامة ولدى" وانفض الجمع وهم فى عجب من مروءته.

وإذا سبرنا غور العبارة نجد أن كلمة قنابر مفردها "قُنْبُر" ونحن فى العامية ننطقها بالإشباع "قنبور" وهو فضل ريش قائم على رأس الطائر[١]. والقنبر طائر صغير له مثل ذلك الريش[٢]. والجمع قنابر. أما كلمة حنابر فهي من باب تثبيت الكلام.

فقد روى أن بعض العرب سئل عن هذا الضرب من الإتباع الذى لا يكاد السامع يستجلى بعض معانى مفرداته، فقال: هو شئ نتد به كلامنا، أي نثبت به كلامنا كقولك: وَتَدَ البدوي الخيمة أى ثبتها. وممّا يماثل قولهم "قنابر حنابر" ما أورده أبوعبيد فى غريب الحديث فى قوله صلى الله عليه وسلم في الشُبرم وهو ضرب من الشيح – إنه حارٌ يارٌ قال الكسائى حارٌ من الحرارة ويار إتباع .

وخلاصة الحديث أن قول الحمر "قنابر حنابر" يوافق صيغ بناء اللغة العربية لألفاظ الإتباع. وهذه العبارة يراد بها تهويل صغائر الأمور. ومن أساليب الإتباع الفصيحة التى تدور أحياناً على ألسنة الحمر وأهل كردفان قولهم "سقط لقط " فى نحو "فلان جايب بضاعة من سقط لقط" كناية عن المكان البعيد. إلا أن استعمالها لا يقتصر على هذا الصياغ الذى أورده العلامة عون الشريف قاسم فى قاموسه فقد ندَّت هذه العبارة إلى مسمعي من ريفى بديار الحمر بمعنى مغاير لما سلف ذكره، إذ طفق يقدح خصوماً له جبلوا على الجشع والاحتيال: "ناس سقط لقط ما نافعين" وقد يقال سقاط لقاط وفى هذا الإتباع مبالغة لمن يمعن فى حيازة ما يمتلكه الناس بحيل ماكرة وأساليب شتى تعوزها النزاهة. والسقط فى اللغة هو الساقط من كل شئ. والعرب تقول: "لكل ساقطة لاقطة أى لكل كلمة سقطت من فم ناطق نفسٌ تلفظها وتعيها ثم تذيعها.[٣] وهذا المثل يضرب لحفظ اللسان "والسقاط هو الذى يبيع السقط من المتاع، أى التافه منه كالتوابل مثلاً . [٤] وفى الحديث عن خصاله صلى الله عليه وسلم فى

---

[١] القاموس المحيط: مرجع سابق، ج٣، ص١٢٣. مادة "قبر"

[٢] الهادي، حسن الكرمي: مرجع سابق، ج٣، ص٥٧٠. لسان العرب، مرجع سابق، ج٧، ص٣١٦. مادة "سقط".

[٣] المعجم الوسيط، مرجع سابق، ج١، ص٤٣٧.

[٤] الصحاح، ج٣، ص١١٣٣. مادة "سقط".

التواضع الجم "كان لا يمر بسقاط ولا صاحب بيعة إلا سلم عليه"[1] وقد ورد فى كلام العرب ما يؤيد المعنى الثانى لهذا الإتباع والذى بسطته سابقاً، إذ يقولون: حيثما سقط لقط. أي حيثما كان المحتال وجد نجاحاً . وقد تعنى حيثما استرق الواشى السمع لحديث بثه.[2]

ويتضح لنا جلياً أن قول الحمر "سقط لقط" إتباع عربى فصيح من حيث المبنى والمعنى وإن اختلف مدلوله من موقف لآخر. ومن أساليب الإتباع لديهم قولهم: "فلان هجّام رجّام" لمن يتهم الناس دون تثبت أو تحقق من جلية الأمر.

وفي ختام هذا الفصل أود أن أشير إلى بعض الأصوات الدخيلة التي تأثرت بها لهجة الحمر. ومن هذا الضرب الحرف (نچ) والذي يدور كثيراً في بادئة اسم مدينة "نيالا" بغرب السودان، وأصل الكلمة باللهجة المحلية من حيث النطق "نچالا" ويطلق الحمر وأهل كردفان على الغض من نخب ثمار نبات اللوبيا (نچرمتي). وسمعتهم يطلقون على كومة الهشيم في الحقل أو في العراء لفظة (كنچيته) والبعض ينطقها (كنيته). وسمعت أيضاً منهم كلمة "نچلم" بمعنى اقتطع أو بتر. وهنالك حشرة سمراء ذات أجنحة تشبه الجُعل تقتات من أفنان شجر الهشاب تسمى "أبو نچاروما".

أما الصوت الدخيل "چ" الذي نجده في بادئة كلمة "chair" الإنجليزية وبادئة ولاحقة كلمة "church" فيندر استعماله عند الحمر ونجده في كلمات قليلة جداً، ومثال لذلك بلدة "أُم قرناً چاك" التي تقع في الطرف الجنوبي الغربي من دار حمر.

ومن الأصوات الدخيلة في لهجة الحمر الصوت "NG" ويرد في كلمات قليلة جداً كقولهم: "كدNGا" للعظم الناتئ في مؤخرة عجز الدابة العجفاء. وفي رأيي أن الكلمات السابقة اقترضت هذه الأصوات الدخيلة من اللغات الحامية على الأرجح في البيئات التي استوطن فيها الحمر.

---

[1] الصحاح، ج٣، ص١١٣٣. مادة "سقط".

[2] الهادي، حسن الكرمي: مرجع سابق، ج٢، ص٣٥٩. لسان العرب، مرجع سابق، ج٧، ص٣١٦. مادة "سقط".